العنوان:	الحمولة الدلالية للقلب عند كل من ابن حزم القرطبي "384 هـ - 456 هـ" والإمام الغزالي "ت. 505 هـ"
المصدر:	مجلة الدراسات المعجمية
الناشر:	الجمعية المغربية للدراسات المعجمية
المؤلف الرئيسي:	الطوكي، محمد
المجلد/العدد:	ع11
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2015
الشهر:	يناير
الصفحات:	345 - 364
رقم MD:	783744
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	الغزالي، محمد بن محمد بن محمد، 450-505 هـ.، ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، 384-456 هـ.، الثقافة العربية، الحمولة الدلالية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/783744

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الطوكي، محمد. (2015). الحمولة الدلالية للقلب عند كل من ابن حزم القرطبي "384 هـ - 456 هـ" والإمام الغزالي "ت. 505 هـ".مجلة الدراسات المعجمية، ع11، 345 - 364. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/783744

إسلوب MLA

الطوكي، محمد. "الحمولة الدلالية للقلب عند كل من ابن حزم القرطبي "384 هـ - 456 هـ" والإمام الغزالي "ت. 505 هـ"."مجلة الدراسات المعجميةع11 (2015): 345 - 364. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/783744

© 2024 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

الحمولة الدلالية للقلب عند كل من ابن حزم القرطبي (384هـ-456هـ) والإمام الغزالي (ت. 505هـ).

ذ. محمد الطوكي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش

يقول ابن حزم: والمحبة ضروب، فأقضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما الاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه".

أشعر في هذا المقام التكريمي، بحمد الله، أن جميع مواثيق المحبة التي ذكرها ابن حزم، تربطني بل تربط بيننا وبين الصديق الأديب والباحث والمناضل عبد الغني أبي العزم. فإلى فضيلته أهدي هذا البحث المتواضع الذي له علاقة بهمه المعجمي، فالمرجو أن يتقبله، والهدية كما يقال على قدر المهدي.

إن المتتبع لكلمة قلب في الثقافة العربية الإسلامية، يجدها حاضرة في معظم شعب تلك الثقافة؛ سواء في مستوى لغتها الطبيعية؛ الكتابية منها والشفوية، أو اللغة الاصطلاحية العلمية*. وسنقتصر في هذه المداخلة على ذلك الحضور لغاية القرن الخامس الهجري، في المناحي اللغوية والفقهية والصوفية والأدبية.

* القلب في اصطلاح الصرفيين، هو إبدال حروف العلة والهمزة بعضها من بعض.- وفي اصطلاح أهل المعاني: القلب هو جعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه."ضرب عمرا زيد. - وعند الأصولين وأهل النظر وهو نوعان: قلب العلة حكما والحكم علة. قلب الوصف شاهدا على الخصم بعد أن كان شاهدا للخصم، ويسمي عند أهل المناظرة بالمعارضة بالقلب. وعند المحدثين: القلب إسناد حديث بإسناد حديث آخر، إما بكله أو بعضه، أو قلب متن حديث بمتن حديث آخر. (أنظر كشاف اصطلاحات الفنون).

الدلالة اللغوية للقلب:

جاء في لسان العرب لابن منظور (711هـ/1311م):" القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط. ابن سيدة: القلب الفؤاد مذكر، والجمع: أقلب وقلوب. وقوله تعالى"نزل به الروح الأمين على قلبك" الشعراء/ 94، قال الزجاج: معناه نزل به جبريل، عليه السلام، عليك فوعاه قلبك وثبت فلا تنساه أبدا.

– من خلال هذا النص المعجمي نلاحظ ما يلي:

أ– الدلالة الحقيقية للقلب:

1– إن ماهية القلب محددة بالخطوط الدلالية التالية: فهو مضغة أي قطعة لحم، ومعلقة بنياط أي بعروق، وشكلها صنوبري. وهذا القلب يكون للبهائم أيضا.

2– إن بين القلب والفؤاد خصوصا وعموما؛ فالقلب بعض من الفؤاد.

وقال أبو طالب المكي وفرق بعض العلماء البصريين بين القلب والفؤاد، فقال: الفؤاد مقدم القلب وما استدق منه، والقلب أصله وما اتسع منه"[1]. وعلى هذا القول فسر قوله صلى الله عليه وسلم:" أتاكم أهل اليمن؛ هم أرق قلوبا، وألين أفئدة" فوصف القلوب بالرقة، والأفئدة باللين. وكأن القلب أخص من الفؤاد في الاستعمال [2].

3– وهناك من يرى أن بين القلب والفؤاد علاقة ترادف، وإلى هذا ذهب ابن سيدة. قال الأزهري: "ورأيت من العرب من يسمي لحمة القلب بشحمها وحجابها قلبا، ورأيت بعضهم يسمونها فؤادا" [3].

4– وهناك من أوغل في التخصيص، فذهب إلى أن القلب هو العلقة السوداء في جوفه، ومن ثم قيل عند إصابتها بالعشق، أصيبت حبة قلبه، وسواد قلبه، وشغاف قلبه [4]... إلخ".

---

(1) أبو طالب محمد بن علي: **قوت القلوب في معاملة المحبوب**، طبعة البابي الحلبي،1961. ج. 2، ص.103.

(2) أبو منصور الأزهري: **تهذيب اللغة**، مادة قلب.

(3) أبو منصور الأزهري: **تهذيب اللغة**، مادة قلب.

(4) قدامة بن جعفر: **جواهر الألفاظ**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب بيروت، ط.1، 1979، ص. 355.

يظهر أن هذا الاختلاف في حقيقة القلب، ناجم عن تيارين معجميين، أحدهما يقول بالترادف، والثاني ينكره. وقد حاول كل واحد من الفريقين تحديد السمات Sèmes المميزة للقلب، اعتمادا على مشاهداته الخاصة لقلوب الذبائح من الحيوان والطير.

ب- خروج القلب عن دلالته الحقيقية إلى دلالات أخرى:

إن المستقرئ لدلالة أعضاء الإنسان في الثقافة العربية الإسلامية، يجدها تحمل بالإضافة إلى معانيها الأولى الفيزيولوجية، معان ثوان زائدة. وهذا الأمر ينطبق على الأعضاء الخارجية والباطنية؛ كالكرش والكبد[5] والصفراء والمريء. وهذا ما سنراه في الدلالات الثواني للقلب.

فقد عبر بالقلب عن العقل، قال الفراء في قوله تعالى:"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب"-ق/8-: أي عقل. قال: وجائز في العربية أن تقول: ما لك قلب، وما قلبك معك. تقول ما عقلك؟ وأين ذهب قلبك؟ أي أين ذهب عقلك؟ وقال غيره: " لمن كان له قلب" أي تفهم وتدبر"[6]. فعبر بالقلب عن العقل، والعلاقة بينهما حينئذ مجازية؛ وهي المحلية، أي أن محل العقل هو القلب، كما تقول حكمت المحكمة وأنت تقصد القضاة. وهذا رأي اللغويين.

أما الفقهاء فقد اختلفوا في موضع العقل. يقول ابن الجوزي (597/ 1200م) " أكثر أصحابنا يقولون محل العقل القلب، وهو مروي عن الشافعي -ر- ودليلهم قوله تعالى: "فتكون لهم قلوب يعقلون بها" – الحج/46- وقوله (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) – ق/37 – قالوا: المراد: لمن له عقل، فعبر بالقلب عن العقل، لأنه محله. ونقل الفضل بن زياد عن أحمد -ر- أن محله الدماغ وهو اختيار أصحاب أبي حنيفة- ر-" [7].

فاللغويون ومعظم الفقهاء متفقون على كون القلب محلا للعقل، و لم يخالف سوى أبي حنيفة الذي جعله في الدماغ، ولعل منهجه الفقهي القائم معظمه على القياس والاجتهاد، هو الذي جعله يميز بين مكاني التعقل والتروعات. فالدماغ محل المنطق الشرعي البعيد عن العواطف والتقلبات. وللمتصوفة دلالات للقلب لا تتعلق بالظاهر بل تتجاوزه إلى نزوعات

(5) في الحديث النبوي:" الأنصار كرشي وكبدي".
(6) ابن منظور: **لسان العرب**؛ مادة، ق، ل، ب.
(7) أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي: **ذم الهوى**، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط.1، 1962. ص. 5-6.

الباطن، ومن بين من عالجها الإمام الغزالي في أبواب من الإحياء، كما في كتاب أسرار الصلاة (ج.1، ص.159– 165). ففي الباب الثالث في الشروط الباطنة من أعمال القلب، وفيه بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب، عالجه انطلاقا من الثنائية التضادية. التدبر/ الغفلة في علاقتهما بالقلب. وفيها نلاحظ الفرق بين المعالجة الفقهية والصوفية. يقول: " إن حكمت ببطلان الصلاة وجعلت حضور القلب، أي التدبر والخشوع، شرطا في صحتها، خالفت إجماع الفقهاء، فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير. فأعلم أنه تقدم في كتاب العلم، أن الفقهاء، لا يتصرفون في الباطن، ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة، بل يبنون أحكام الدين على ظاهر أعمال الجوارح، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعزير السلطان، فأما أن ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه. على أنه لا يمكن أن يدعي الإجماع... ومع هذا لا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحة مع الغفلة؛ فإن ذلك من ضرورة الفتوى كما سبق التنبيه عليه. ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها" ج. 161/1.

من خلال ما تقدم، نلاحظ أن المعجم اللغوي العربي يقدم فذلكة عن دلالات القلب دفعة واحدة، من غير مراعاة للبعد التاريخي في علاقته بتلك الدلالة، أو تنوع البيئات واختلافها ما بين بادية وحاضرة، أو تنوع المعارف وانعكاسات كل ذلك على مفهوم القلب.

وتلافيا للتعميم، فإننا نشير إلى أن اللحظة التي وقع اختيارنا عليها للحديث عن الحمولة الدلالية للقلب، هي لحظة القرن الخامس الهجري، الثاني عشر الميلادي، وذلك من خلال بعض أعمال علمين ممثلين للثقافة الإسلامية خير تمثيل، جمعا بين الأدب والفلسفة والفقه والأصول والكلام، مثل أحدهما المذهب الظاهري؛ وهو ابن حزم، واصطلح في شخصية الثاني الفقه والفلسفة والتصوف؛ وهو أبو حامد الغزالي.

أ– دلالة القلب عند ابن حزم:

مرجعيتنا بالنسبة لابن حزم سيرته الذاتية طوق الحمامة في الألفة والألاف، فالعمل ضارب في القلب وما يعتريه:

من خلاله عرفنا أن ابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد (384هـ /944م)/ 456هـ/1064م). يمكن تلخيص حياته، وإجمالها في مرحلتين متباينتين:

مرحلة العز والصولة، ومرحلة السقوط والاضطراب.

المرحلة الأولى تمثلت في طفولة ومراهقة مطمئنة سعيدة مترفة، في ظل أسرة أرستقراطية؛ فأبوه أحمد بن سعيد كان وزيرا للمنصور بن أبي عامر (381 هـ /993م) وعندما توفي هذا الأخير، حافظ على نفس المنصب في عهد الحاجب الثاني، المظفر عبد المالك بن أبي عامر (399 هـ /1008م). يقول ابن حزم عن برهة من هذه المرحلة: " لقد شاهدت النساء... ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، و لم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي، وهن علمنني القرآن، وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط"[8].

المرحلة الثانية من حياته وتتمثل في مسلسل السقوط: تبتدئ من 399 هـ /1009م، فيها أعفي والد ابن حزم من الوزارة، وتراجعت الخلافة الأموية، ونشبت الفتنة التي أتت على الأخضر واليابس، وتشتت البلاد شذر مذر، وقام على رأس كل ناحية ملك. يقول ابن حزم، مخاطبا من التمس منه كتابة رسالة في الحب: " فأنت تعلم أن ذهني متقلب وبالي مهصم، بما نحن فيه من نبو الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغول الزمان، ونكبات السلطان، وتغير الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام، وذهاب الوفر، والخروج عن الطارف والتالد، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد، والغربة في البلاد، وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس من الرجوع إلى موضع الأهل، ومدافعة الدهر، وانتظار الأقدار"[9].

ففي أتون هذه المرحلة، ستعرف حياة ابن حزم منعطفا خطيرا، فخلالها سيكتب الكثير، وبواسطة هذه الكتابة سيتحرر من كوابح الإحباط، وبها سيستبدل اليأس أملا، فكأنها خيط أريان اللطيف الذي سيخرجه من قلب الأزمة والمتاهة. يقول: "لقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنهم بهم توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري

(8) ابن حزم: **طوق الحمامة**، تحقيق صلاح الدين القاسمي، دار الشؤون الثقافية بغداد، 1986. ص. 121.
(9) م.ن. ص. 264، انظر أيضا الصفحة 216–2017.

وهيج نشاطي؛ فكان ذلك سببا في تواليف عظيمة المنفعة، ولولا استثارهم ساكني، واقتداحهم كامني؛ ما انبثقت تلك التواليف" [10]. ففي مستهل هذه المرحلة الأدبية سيكتب طوق الحمامة في الألفة والألالف.

يندرج هذا العمل، طوق الحمامة، من الناحية الأدبية في إطار السيرة الذاتية. وقد تولد هذا النص من تيمة الحب، وتسلل إلى معانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه. والحديث عن الحب هو في عمقه حديث عن القلب. وغرابة هذا الموضوع، استدعت شكلا مناسبا لتلك الغرابة؛ فقد راوح نسيج النص بين روعة النثر الفني، وجمالية الشعر، ودقة ما وصل إليه العلم آنذاك، وجمع منهجه بين الاستبطان- فيا ما عانى قلبه من لواعج الهوى- والبحث عن الأسباب الثاوية وراء الانفعالات والعواطف، وبرهن على نتائج ما توصل إليه نظره بوقائع شخصية، أو مشاهدة، أو حدثه بها عدل ثقة، وأكد رؤياه ببراهين شعرية مناسبة، أغلبها من إبداعه.

1- محل الحب هو القلب: وبما أن الحب عالق بمطلق القلوب وما من ذكر أو أنثى إلا وقد ضرب فيه بسهم قليل أو كثير، فقد لامست معالجته الشأن السياسي والديني والاجتماعي والثقافي، وتسللت إلى حميمية عوالم الرجال والنساء من مختلف الطبقات. وسنستهل موضوعنا، بالطابوه الذي استهل به ابن حزم كتابه، وهو علاقة الحب بالقلب من الناحية الدينية.

2- إن لتولد الإبداع كوابح وعوائق ابستمولوجية، فالبوح بالحب إلى الخاص والعام من الطابوهات، وتزداد كثافة الطابو وحدته، عندما يتصدى إليه فقيه، وبصفة أخص فقيه ظاهري؛ يكتفي من النص بدلالته الأولى، ولا يقول بالعلل والأسباب المفضية إلى عوالم المعاني الثواني والثوالث، وإذا لم ينفك هذا العائق الإبستمولوجي وينحل، فإن ولوج عالم الكتابة والمغامرة فيه سيبقى متعذرا.

وقد انفتح الموضوع لابن حزم بمجرد ما حسم فيه من الناحية الدينية عندما قال "الحب، أعزك الله، أوله هزل وآخره جد، وليس بمنكر في الديانة، ولا بمحضور في

(10) م.ن. ص. 25.

الشريعة؛ إذ القلوب بيد الله عز وجل. وقد أحب من الخلفاء المهديين، والأئمة الراشدين كثير، منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء، والحكم بن هشام، وعبد الرحمان بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هشام المؤيد بالله، رضي الله عنه وعن جميعهن، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها. ومثل هذا كثير، ولولا حقوقهم على المسلمين واجبة- وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزم وإحياء الدين، وإنما هو شيء كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم، فلا ينبغي الإخبار به عنهم- لأوردت من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل..." (11).

ما يعنينا من هذا النص هو علاقة الحب بالقلب:

إن مكان الحب هو القلب، والعبارات التالية من الطوق تؤكد ذلك:

- تمكن الحب من القلب أو ضعفه، ص. 202.
- ابتداء المحبة من القلب، ص. 203.
- قلبه يذعن للود، ص. 172.
- وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب، ص. 75.
- جارية أخذت بمجامع قلبه، ص. 76.
- تمكن الحب من صميم الفؤاد، نافذ في حجاب القلب، ص. 80.
- سلو طبيعي، هو المسمى بالنسيان يخلو به القلب ويفرغ به البال، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط، ص. 201.
- ولم يجعله في الكبد إلا مرة واحدة وهو في هذه الحالة مخالف لوجوده في القلب يقول: " لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة، وهم أولئك الذين يداعب قلوبهم الحب، لكنهم يتهربون منه بالهجر وترك الإلمام، ص. 79-80.

(11) م.ن. ص.47 وما بعدها إلى ص.49.

2- فما هي ماهية هذا الحب الكامن عنده في القلب: عالجها معالجة معمقة ضمن ثنائية محبة منقضية /محبة دائمة: فالحب هو " اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة، في أصل عنصرها الرفيع [12]. " قال تعالى: " هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها" [13] فالمحبة جبلة معطاة. ورد قول محمد بن داود الظاهري الذي مال إلى أراء بعض أهل الفلسفة؛ الذين ذهبوا إلى أن الله خلق الأرواح على شكل دوائر، ثم قسمها نصفين، وكل جزء التقى بجزئه التأم معه، وسعد بعامل المناسبة"[14]. فأشياء القلب أصبحت تناقش مناقشة فلسفية عميقة، يحاور فيها العقل النقل" وأما المحبة فخلقة، ولا يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة". ويسبر ويتقصى أنواع المحبة وأصنافها، وحدها وشدها وفتورها، وزيادها ونقصانها". المحبة ضروب، فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل، إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل النحلة والمذاهب، وإما لفضل علم يمنحه الإنسان، ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، وحبة البر يضعه المرء عند أخيه، ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. فكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها، زائدة بزيادها، وناقصة بنقصانها، متأكدة بدنوها، فاترة ببعدها، حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفوس، فهي التي لا فناء لها إلا بالموت"[15].

ارتبط عالم القلب في طوق الحمامة بمقامات متعددة انعكست عليه أثارها النفسية كموقف الوصل؛ والهجر، والبين والغدر والوفاء، أو الوسيلة الذاتية التي قادت الحب إلى القلب، أو الواسطة الخارجية بين المحب والمحبوب، كالمساعد من الإخوان والسفير، أو بفضول العاذل والواشي والرقيب.

3- وسنقف من مقولة الحب العالق بالقلب عند تردده بين ثنائية الشهوة/العشق.

(12) م.ن. ص.49.
(13) سورة الأعراف، الآية 189.
(14) ابن حزم طوق الحمامة، ص. 50.
(15) م.ن. ص. 51.

الشهوة عند ابن حزم؛ هي حب جسدي سطحي طارئ على القلب مرهون بلحظته، غير متمكن " وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدي، واستطراف البصر الذي لا يجاوز الألوان، فهذا سر الشهوة ومعناه على الحقيقة"[16].

وأما العشق؛ وهو الحب المتمكن في القلب، يدوم بدوام المتحابين ولا يضمحل أو يتناسى ولو بموت أحد الطرفين. ويعتبر العشق اتحادا جرى في عالم الأمر ثم تحقق في العالم الواقعي بين ذاتين. بيد أن الوصول هذا المستوى من العشق بحاجة إلى تربية وعلم." إن الحب اتصال بين النفوس في أصل عالمها العلوي، بل هو مؤكد له. فقد علمنا أن النفس في هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب، ولحقتها الأعراض، وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيرا من صفاتها، وإن كانت لم تحله، لكن حالت دونه، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة، إلا بعد التهيؤ من النفس، والاستعداد له، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها، ومقابلة الطبائع التي خفيت بما يشابهها من طبائع المحبوب، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحا بلا مانع" [17].

أعتقد أن الرجل في هذا النص يمزج بين نظرية المعرفة الأرسطية والأفلاطونية، فالحب من جهة اتصال بين النفوس في عالمها العلوي عالم المثل، فالنفس في عالم الواقع لم تحافظ على صفائها؛ نظرا لأن الطبائع الأرضية قد صيرتها مغمورة بالحجب وهاهنا تكمن خلفية نظرية المثل عند أفلاطون. ومن جهة ثانية فإن الاتصال بين النفسين وحصول الماهية ممكن عن طريق الاستعداد النفسي، وعن طريق المعرفة وذلك بالبحث عن المشاكل والمناسب، وبهذا يحصل الاتصال الحقيقي الذي كان في العالم العلوي وهنا الخلفية الأرسطية القائلة بإمكانية تحقق الماهية. في حين فنظرية أفلاطون تجعل مفارقات في محاولة التماهي إن لم تنكره.

فانطلاقا من هذه الرؤية الفلسفية المعمقة فإن تعلق القلب بمحبوبين أو أكثر بعيد عن ماهية المحبة فهو داخل في باب الشهوة، وهي لا تسمى محبة إلا على طريق المجاز لا الحيقة. أما العاشق فإن قلبه لا يتسع إلا لمحبوب واحد، " فما في الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثان ؟ وفي ذلك أقول:

(16) م.ن. ص. 82.
(17) م.ن. ص. 81-82.

كذب المدعي هوى اثنين حتما مثل ما في الأصول أكذب ماني
ليس في القلب موضع لحبيبيـــــــــن، ولا أحدث الأمور بثـــــــان
فكما العقل واحد ليس يدري خالقا، غير واحد رحمـــــــان
فكذا القلب واحد ليس يهوى غير فرد مباعد أو مـــــــدان
هو في شرعة المودة ذو شر ك، بعيد من صحة الإيمـــــــان
وكذا الدين واحد مستقيم وكفور، من عنده دينـــــــان[18].

4- مسالك الحب إلى القلب:

تعتبر الحواس الخمس عند ابن حزم كلها أبوابا مؤدية إلى القلب، ومنافذ نحو النفس، لكن العين أبلغها. والنص التالي يستحضر الأبعاد السيميائية للعين يقول: "فبلحظها يقطع ويتواصل، ويوعد ويهدد، وينتهر ويبسط، ويأمر وينهى، وتضرب به الأوعاد، وينبه على الرقيب، ويضحك ويحزن، ويسأل ويجاب ويمنع ويعطى. ولكل واحدة من هذه المعاني ضرب من هيئة اللحظ لا يوقف على تحديده إلا بالرؤية. وأنا واصف ما تيسر من هذه المعاني.

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهي عن الأمر، وتفتيرها إعلام بالقبول، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف، وكسر نظرها، آية الفرح، والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد وقلب الحدقة إلى جهة ما، ثم صرفها بسرعة: تنبيه على مشار إليه. والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتيهما سؤال، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المؤق بسرعة شاهد المنع، وترعيد الحدقتين من وسط نهي عام، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة"[19]. " فلولا علم الله، عز وجل، برقة إغماضهن في السعي لإيصال حبهن إلى القلوب، ولطف كيدهن في التحيل لاستجلاب الهوى، لما كشف الله عن هذا المعنى الغامض، الذي ليس وراءه مرمى"[20]. يشير إلى قوله تعالى: " قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن"[21].

(18) م.ن. ص. 82.
(19) م.ن. ص.91-92.
(20) م.ن. ص. 228.
(21) سورة النور الآيتان 31-32.

وتنقسم النظرة الحاملة للتروعات القلبية إلى قسمين، نظرة بريئة وأخرى مريبة، وهاهنا تتداخل المعايير الدينية بشؤون القلب. فالنظرة الأولى لا حرج فيها ولا تاثيم، لأن الرؤية –المتأتية من العين السليمة، من طبيعتها وخلقتها، لا اختيار فيها للرائي، ولا حول له فيها ولا قوة ، فهي اضطرارية. وهل يلزم الإنسان إلا اختياره [22]؟ وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة [23]. وكثيرا ما يكون لصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة[24].

والنظرة المريبة أو إدمان النظر والالتذاذ بمواصلته، واتباع الهوى معصية. "جعلت النظرة الأولى لك، والأخرى عليك. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تأمل امرأة وهو صائم، حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر. وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنص التنزيل لشيئا مقنعا"[25].

وقد تكون النظرة مقصودة ومطلوبة، إذا كان القصد جميلا، والنية في العشرة صادقة. وهذه النظرة المسموح بها تقع بعد العزم وقبل الخطبة. لحديث المغيرة عن الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه أنه خطب امرأة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما"[26].

والنظر هاهنا يتأتى من الرجل والمرأة، وما يجري عليه ينطبق عليها.

إن عالم القلب عالم يصطرع فيه نزوعان، الهوى أو النفس والعقل، وكل واحد منهما يحاول الهيمنة على الآخر. يقول:" فهما يتقابلان أبدا ويتنازعان دأبا، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان، وقمع عوارضه المدخولة، واستضاء بنور الله، واتبع العدل. وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة، و لم يتضح الفرق بيم الحسن والقبيح، وعظم الالتباس، وتردى

(22) ابن حزم طوق الحمامة، ص. 100.

(23) م.ن. ص. 100.

(24) م.ن. ص. 75. ولابن حزم وجهة نظر خاصة في هذا النوع من الحب : فأسرع الأشياء نموا أسرعها فناء، وأبطؤها حدوثا، أبطؤها نفاذا. "فكثير المشاهدة، وتمادي الأنس هو الذي يوشك أن يدوم ويثبت، ولا يحيك فيه مر الليالي. فما دخل عسيرا، لم يخرج يسيرا، وهذا مذهبي". ص. 79.

(25) م.ن. ص.227.

(26) م.ن. ص. 82. عبد العزيز بن الصديق: ما يجوز في الحياة الزوجية، طبعة البوكيلين القنيطرة، 1998، ص. 268.

في هوة الردى، ومهواة الهلكة، وبهذا حسن الأمر والنهي، ووجب الاكتمال، ووضح التواب والعقاب، واستحق الجزاء" [27].

5- الصور الفنية البلاغية، المعبرة عن العواطف والانفعالات التي تعتري القلب:

منها في طوق الحمامة:

- تقطع قلبي حسرة وتفطرا، ص. 58.
- عيني جنت في فؤادي لوعة الفكر، ص. 78.
- غزال سبى قلبي بألحاظ مراض، ص. 90.
- كأن القلب إذ يبدو قطاة ضمها شرك، ص. 101.
- ملك الفؤاد، ص. 103.
- قطعت قلبه ضروب الوجد، ص. 113.
- إن التي قلبي بها علق، ص. 136.
- فزاد أليلا بقلبي اليبس، 137.
- صرح الحب ما تخفيه أضلعه، ص. 166.
- قلب آلف، ص. 166.
- وددت بأن القلب شق بمدية 139.
- سكنت شغاف القلب في ظلم القبر، ص. 139.
- اتفقت القلوب، ص. 144.
- لذة في القلب لا تعدلها لذة، ص. 15.
- ولو جلدي في كل قلب ومهجة، ص. 167.
- قلبه يذعن للود، ص. 172
- كست فؤادي خضرة، ص. 175.
- بشرى أتت واليأس مستحكم والقلب في سبع طباق شداد، ص.175

(27) م.ن.، ص. 224.

- وقد آن للقلب أن يفيق، ص. 256.
- اشتعل في قلبه النار، ص. 138.
- كأن فؤادي لابسا للحداد، ص. 175.
- ساعة ترق القلوب، وتلين الأفئدة، ص. 176.
- ولو أن القلوب تستطيع سيرا، ص. 217.
- أحس في قلبه غصة أحر من العقلم، ص. 65.
- دليل الأسى نار على القلب تلفح، ص. 66...إلخ

ب– دلالة القلب عند بعض المتصوفة، وخاصة الإمام الغزالي:

أدرجنا دلالة القلب لدى المتصوفة ضمن توسع الدلالة اللغوية بصفة عامة، نظرا لأن الرؤية الشعرية الصوفية كانت ولا تزال مرجعية إبداعية، امتاح منها القدامى والمحدثون، ولاشك أنها مترسبة فيما ينتجون من أعمال.

وفي هذه الفقرة سنتتبع دلالة القلب وعوالمه عند الإمام الغزالي، ولكن قبله نقل أبو طالب محمد المكي (ت 386 هـ /996م) عن مرة قوله: " في القلب تجويفان، فالتجويف الظاهر هو الفؤاد، ومكان العقل. والتجويف الباطن هو القلب، وفيه السمع والبصر، وعنه يكون الفهم والمشاهدة، وهو محل الإيمان. وقد قال الله تعالى: (كتب في قلوبهم الإيمان)– المجادلة/22. وقال: (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) ق/37"[28]. وقد رد أبو طالب مكي على من يقول بأن العقل متعلق بمظهر خارجي كاللحية وأكد أن موضعه هو القلب. قال: " يظن صاحب اللحية؛ أن كثرة الأيام بيضت لحيته و أعطته فضلا، أو جعلت فيه علما، ولا يعلم أن العقل غرائز في القلوب" [29].

هذا التعريف الذي أورد أبو طالب محمد؛ يمثل مفهوم القلب لدى بعض المتصوفة إلى حدود نهاية القرن الرابع، ونرى أن اساس هذا التعريف قائم على الثنائية الصوفية الظاهر والباطن، حيث قسم العضو إلى تجويفين أحدهما الظاهر وهو الفؤاد، وفيه يسكن العقل

(28) أبو طالب محمد المكي: **قوت القلوب**. 103/2.
(29) م.ن.، 293/2.

البرهاني، القياسي الاستقرائي، والتجويف الثاني باطن وهو القلب وعنه يتأتى الإدراك ومشاهدة المحبوب.

لكن مع القرن الخامس الهجري ومستهل السادس، سيعرف القلب مع الإمام أبي حامد الغزالي (ت. 505 هـ /1111م) بحثا فلسفيا أكثر عمقا ولطافة، وهذا التعريف هو الذي سيهيمن على الفكر الصوفي هيمنة مطلقة. يقول الغزالي:" الروح الإنساني العلوي السماوي من عالم الأمر، والروح الحيواني البشري من عالم الخلق. والروح الحيواني البشري محل الروح العلوي ومورده. والروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الإحساس والحركة، ينبعث من القلب، أعني بالقلب هاهنا المضغة اللحمية المعروفة الشكل، المودعة في الجانب الأيسر من الجسد، وينتشر في تجاويف العروق الضوراب، وهذه بإجراء سنة الله بالغذاء غالبا، ويتصرف بعلم الطب فيه باعتدال مزاج الأخلاط. ولورود الروح الإنساني العلوي على هذا الروح تجنس الروح الحيواني، وباين أرواح الحيوانات، واكتسب صفة أخرى، فصار نفسا محلا للنطق والعقل والإلهام. قال تعالى (ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقوها) فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها، وانقطاعها عن جنس أرواح الحيوانات. فتكونت النفس بتكوين الله تعالى من الروح العلوي، وصار تكون النفس التي هي الروح الحيواني من الآدمي، من الروح العلوي في عالم الأمر، كتكون حواء من آدم في عالم الخلق، وصار بينهما من التآلف والتعاشق كما بين آدام وحواء. وصار كل منها يذوق الموت بمفارقة صاحبه. قال الله تعالى (جعل منها زوجها ليسكن إليها) فسكن آدم إلى حواء، وسكن الروح الإنساني العلوي إلى الروح الحيواني وصيره نفسا. وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب. وأعني بهذا القلب اللطيفة التي محلها المضغة اللحمية. فالمضغة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر. وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر، كتكون الذرية من آدم وحواء في عالم الخلق، ولو لا المساكنة بين الزوجين اللذين أحدهما النفس ما تكون القلب" (30).

فهذا النص قائم على الحد المنطقي للإنسان، وعلى لجدل بين عنصريه الذي سيؤدي إلى تولد أمر جديد. عرف المناطقة الإنسان بكونه حيوانا ناطقا، فهذا الحد يتكون من فصلين؛ الحيوانية والناطقية، فناسب الفصل الأول الروح الحيوانية، ولاءم الثاني الروح العلوية.

(30) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**/ دار المعرفة بيروت.د.ت. الجزء 5، ص.217.

فالروح الحيواني جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني؛ ينشر بواسطة العروق الضوارب أنوار الحياة من حس وبصر وسمع وشم...إلخ وهذه الروح موجودة في سائر الحيوانات وقوامها الغذاء. والأطباء إذا أطلقوا لفظ الروح أرادوا به هذا المعنى، وهو عندهم" بخار لطيف أنضجته حرارة القلب، وليس شرحه غرضنا، إذ المتعلق به غرض الأطباء الذين يعالجون الأبدان" [31]. ولا تتأتى صحته إلا باعتدال مزاج الأخلاط.

أما الروح الإنساني العلوي" وهو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، وظرفها ومكانها، هو الروح الجسماني، وبملابسة العلوي للجسماني ومساكنته له وتفاعله معه، فارق الحيوانية، وآل إلى نفس قابلة للعقل والإلهام. ونتيجة لهذا التساكن، تكون القلب الذي هو مضغة لحمية وهي من عالم الخلق، إذ كل ما في دنيا الخلق هو من عالم الخلق، ومن اللطيفة الربانية الروحانية التي هي عالم الأمر"[32]. " فالروح العلوي يهم بالارتفاع إلى مولاه شوقا وحنوا وتترها عن الأكوان، ومن الأكوان القلب والنفس، فإذا ارتقى الروح، يحنوا القلب حنو الولد الحنين البار إلى الوالد، وتحن النفس إلى القلب الذي هو الولد حنين الوالدة الحنون إلى ولدها، وإذا حنت النفس ارتقت من الأرض وانزوت عروقها الضاربة في العالم السفلي، وانطوى هواها، وانحسمت مادته، وزهدت في الدنيا، وتجافت عن دار الغرور، وأنابت إلى دار الخلود"[33].

أما الروح الحيواني الذي هو مكون من مكونات النفس التي هي الأم وأنسب إلى الأرض بوضعها الجبلي، فإنه ينجذب إلى الطبائع التي هي أركان العالم السفلي. قال الله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) "فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض، انجذب إليها القلب المنكوس انجذب الولد الميال إلى الوالدة المعوجة الناقصة، دون الوالد الكامل المستقيم، وينجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب، لما جبل عليها من انجذاب الوالد إلى ولده، فعند ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه"[34].

---

(31) م.ن. ج. 4/3.

(32) التهانوي: **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**. تحقيق الدكتور علي دحرج وآخرين لبنان 1996 مادة عالم، ومادة قلب.

(33) أبو حامد الغزالي: **الإحياء** 213/5- الباب 56 من كتاب هوارف المعارف.

(34) م.ن.، 217/5.

وبهذا التعريف القائم على جنينية تكوين القلب طور الإمام الغزالي النقاش الدائر حول العقل ومحله، فمن قائل إن محله الدماغ، ومن قائل إن محله القلب. يقول: "وهذا كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك، واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد"[35].

المرجعية الصوفية للقلب تمتاح هيكلها من التصور الطبي له ومن المرجعية الفلسفية:

بالرجوع إلى نصوص التصوف المتعلقة بالقلب، نجد أنها تستمد هيكلة حديثها عن القلب من علم الطب ثم تضفي عليه من رؤيتها الصوفية والفلسفية، يظهر لنا ذلك في عدة مستويات، في التعريفات والمصطلحات، وضرب الأمثلة، واستثمار المباحث الطبية في الأغراض الصوفية. من المظاهر الطبية عناوين بعض كتب التصوف من مثل قوت القلوب، واعتلال القلوب لأبي بكر محمد بن جعفر السامرائي (ت. 327 هـ /938م)، الإحياء للإمام الغزالي. من قضايا هذا الأخير المحيلة على عالم الطب. الأوساخ والرطوبات137/1- الدواء النافع في حضور القلب. 163/1- الوظائف 213/1- آفات النكاح وفوائده. 25/5- فيما يعم ضرره. 72/20- إحياء علوم الدين 357/2- المهلكات 2/3-خاصية قلب الإنسان 3/7-معالجة أمراض القلب.48/3-علامات أمراض القلب وعلامات عودها إلى الصحة. 62/2- معالجة أمراض القلوب65/3 سبيل الرياضة.74/3-بيان فضيلة الجوع 80/3-آفات اللسان 7/3 ونجد في كتاب النفس والروح وشرح قواهما [36] للإمام فخر الدين الرازي(ت 606 هـ /1209م) قضايا من مثل: القلب أول الأعضاء تكونا(ص 59)- القلب في موضع وسط(ص.62) قوة الجسم والحركة تجري من الدماغ إلى القلب(ص. 67)- لا نسلم أن منبت العصب هو الدماغ (ص.66)- لا نزاع أن القلب منبت الشرايين(ص. 67) الأعصاب إنما تولدت من الشرايين، وجواب جالينوس عن هذا الكلام-(ص.67-68)... الخ.

ويمكن مقارنة تعريفاتهم المتقدمة للقلب، بالتعريف الطبي الآتي. يقول ابن سينا في القانون:" القلب مخلوق من لحم قوي، وقدر خلقته بمقدار الكفاية، مدرج إلى الصنوبرية،

(35) م.ن. 218/5.

(36) فخر الدين محمد الرازي: **كتاب النفس والروح وشرح قواهما**. تحقيق محمد صغير حسن. معهد الأبحاث الإسلامية- إسلام آباد 1968.

مودع في غلاف حصيف، فيه ثلاثة بطون، ينبسط مع قواه الطبيعية فيجذب الدم إلى الداخل، وضع في الوسط من الصدر لأنه أعدل موضع، وأميل يسيرا إلى اليسار"[37].

ومن الأقوال الواردة في الإحياء، لا يعالج الشيء إلا بضده 28/3. "إذا كان هم الأطباء معالجة الأبدان، فإن غرض أطباء الدين المعالجين للقلب حتى ينساق إلى جوار رب العالمين) 4/3. وشبه مفعول الذكر بفعل الدم المغذي الذي يجري في العروق، فكلما ازداد ترديد الذكر إلا وانتهى إلى القلب ومنه إلى الشرايين حتى يسري في الجسد باسره، وعن طريق القلب الجسماني يأخذ طريقه إلى القلب الروحاني.

وعلى كل حال فإن عالم الأجسام عند المتصوفة طريق إلى عالم الأرواح، والعبور إلى الروحاني لا يتأتى إلا بتجاوز الجسماني" إذ كما يستحيل الوصول إلى اللب إلا عن طريق القشر، فيستحيل الترقي إلى عالم الأرواح إلا بمثال عالم الأجسام" [38]. "فاعلم أن التكلف والترسم ممقوت عند ذوي الجد، فما كلمة إلا وتحتها رموز وإشارات معنى خفي، يدركها من يدرك بالموازنة والناسبة بين عالم الملك وعالم الشهادة، وبين عالم الغيب والملكوت؛ إذ ما من شيء في عالم الملك والشهادة، إلا وهو مثال لأمر روحاني من عالم الملكوت، كأنه هو في روحه ومعناه، وليس هو في صورته وقالبه" [39].

فنظرية المثل الفلسفية الأفلاطونية حاضرة في هذا النص، ومفادها عند أفلاطون أن ما يشاهد في عالم الواقع المحسوس ليس هو حقيقة الشيء وماهيته، فما أشبهه بظل تلك الحقيقة التي تبدو مخايلها منعكسة في قعر كهف، وشتان بين الماهية والظل، ثم إن هذا الظل يعمل جاهدا على أن يتماهى مع ما كان عليه في عالم المثل.

الصور السياسية للقلب أو عندما يصبح القلب حاملا ومؤشرا إلى هم سياسي:

حملت أعمال مجموعة من المتصوفة أبعادا سياسية، عالجتها تارة بالتصريح وأخرى

---

(37) ابن سينا: **القانون في الطب**، مكتبة المثنى بغداد ج. 2، ص. 261، حذفنا الشروح واقتصرنا على الخطوط المميزة لتعريف القلب.

(38) الغزالي أبو حامد: **جواهر القرآن**، دار الأفاق بيروت ط.4، 1979 ص. 28.

(39) م.ن. ص. 28

بالتلميح والتخييل. وعلى سبيل المثال نجد الإمام الغزالي في كتابه الإحياء يقدم مشروعا اصلاحيا معلنا، كما في مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحلال والحرام، والخطط السلطانية، ومداخيل الدولة ومصاريفها، وتعريضه بالفقهاء...إلخ. كما عالج نفس الموضع السياسي من خلال لحمة القلب في علاقتها ببقية أعضاء البدن وما تحمله من نزوعات. وهاهنا ينتهز المناسبة لبيان صلاح نظام القلب وفساده، فيمثله بملك مستو على عرشه داخل الصدر، ومنه يدير شؤون مملكته، ويشبه بقية الأعضاء و ما أنيط بها من انفعالات بمناصب سامية في الدولة، ويتحدث عما ينبغي أن تكون عيه العلاقات حتى يصلح أمر المدينة–الجسد– ببرانيته وجوانيته، وحتى تكتمل الصورة بين المشبه وما ينبغي أن يكون عليه المشبه به،–تدبير المدينة– وهذا من باب التشبيه المقلوب.

ولتوضيح ذلك نستحضر بعجالة الوضع السياسي خلال العصر العباسي الثاني. لخص طه حسين هذا الوضع عندما قال" بفساد السياسة والاقتصاد ورقي العقل" [40]. "فمن الناحية السياسية تفككت السلطة المركزية في بغداد، واستعصى عليها جمع أطراف الدولة تحت راية الخلافة العباسية الموحدة، وفتح المجال لاستقلال الطراف، وظهور القوميات الوطنية؛ فظهر في بلاد فارس البويهيون، والسامانيون، والغزنويون، والطاهريون والصفيون...إلخ. وظل الصراع محتدما بين هذه السلالات، ومن نتائج فساد السياسة واضطراب الاقتصاد الغليان الاجتماعي" [41].

"وفي السنين التي تميزت بازدهار العهد السلجوقي، كان نظام الملك (485 هـ /1092م) ساعد ملكشان الأيمن ومدبر ملكه، ومستشاره الأمين، فصار– كما يقول ابن خلكان (الأمر كله لنظام الملك وليس للسلطان إلا التخت والصيد). وكان نظام الملك هو وأولاده الاثني عشر يقبضون على زمام الأمور" [42].

---

(40) طه حسين: **من تاريخ الأدب العربي، طبعة بيروت** 1974، 3832.

(41) م.ن. 2/35-36.

(42) حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام**، مكتبة النهضة، ط. الأولى 1967، الجزء 4، ص. 30.

ويقول العماد الأصفهاني عن تدهور مداخيل الضرائب وسوء الحالة السياسية والمالية:" وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد وصرفها إلى الأجناد، ولم يكن لأحد قبل إقطاع، فراى نظام الملك أن الموال لا تحصل من البلاد لاختلالها، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها، ففرقها على الأجناد إقطاعا، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا" (43).

بقراءتنا لنصوص الإمام الغزالي الآتية، مستحضرين هذه الخلفية السياسية، يتبين لنا كيف يبني الغزالي من خلال مملكة القلب واقعا سياسيا، بديلا عن الواقع السياسي المعيش. يقول:" مثل نفس الإنسان في بدنه، اعني بالنفس اللطيفة المذكورة "القلب" كمثل ملك في مدينته ومملكته؛ فإن البدن مملكة النفس وهو عالمها ومستقرها ومدينتها، وجوارحها وقواها بمنزلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل، والشهوة كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة، والعبد الجالب للميرة كذئب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح، وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل، وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة، كما أن الوالي في مملكته إذا كان مستغنيا في تدبيراته بوزيره مستشيرا له، ومعرضا عن إشارة هذا العبد الخبيث، مستدلا بإشارته في ان الصواب في نقيض رأيه، ادبه صاحب شرطته، وساسه لوزيره وجعله مؤتمرا له، مسلطا من جهته على هذا العبد الخبيث واتباعه وانصاره؛ حتى يكون العبد مسوسا لا سائسا، ومامورا مدبرا لا أميرا مدبرا، استقام أمر بلده وانتضم العدل بسببه"(44).

نص ثان في نفس الموضوع:

" القلب الذي هو وسط مملكته كالملك، ويجري القوة الخيالية المودعة في مقدم الدماغ مجرى صاحب بريده، إذ تجتمع أخبار المحسوسات عنده، ويجري القوة الحافظة التي مسكنها مؤخر الدماغ مجرى خازنه، ويجري اللسان مجرى ترجمانه، ويجري الأعضاء المتحركة مجرى

(43) بنسالم حميش: **الغزالي بين فكر القطعيات وسياسة الإقطاع**، في ندوة أبي حامد الغزالي، منشورات كلية الآداب، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 9، ط. 1988، ص. 34.

(44) أبو حامد الغزالي: **إحياء علوم الدين**، ج. 3، ص. 6-7.

كتابه، ويجري الحواس الخمس مجرى جواسيسه، فيوكل كل واحد منها بأخبار صقع من الأصقاع؛ فيوكل العين بعالم الألوان، والسمع بعالم الأصوات، والشم بعالم الروائح. وكذلك سائرها فإنها أصحاب أخبار يلتقطونها من هذه العوالم ويردونها إلى القوة الخيالية التي هي كصاحب البريد، ويسلمها صاحب البريد إلى الخازن وهي الحافظة، ويعرضها الخازن على الملك فيقتبس الملك منها ما يحتاج إليه في تدبير مملكته"(45).

نص ثالث:

"والحكيم الذي هو مثال العقل، محله القلب، مأمور بأن يدفع كيد الشيطان ومكره بأن يكشف عن تلبيسه ببصيرته النافذة، ونوره المشرق الواضح، وأن يكسر شره هذا الخنزير بتسليط الكلب عليه، إذ بالغضب يكسر سورة الشهوة، ويدفع ضرواة الكلب بتسليط الخنزير عليه، ويجعل الكلب مقهورا تحت سياسته، فإن فعل ذلك وقدر عليه، اعتدل الأمر وظهر العدل في مملكة البدن، وجرى الكل على الصراط المستقيم، وإن عجز عن قهره قهروه واستخدموه، فلا يزال في استنباط الحيل وتدقيق الفكر، ليشبع الخنزير ويرضي الكلب، فيكون دائما في عبادة كلب وخنزير" (46).

لقد حمل القلب في الثقافة العربية الإسلامية عدة دلالات، وقفنا منها على الدلالة اللغوية الطبيعية التي دل فيها القلب على المضغة المعلقة نبياط، كما عنى دلالات مجازية أخرى، تراوحت بين العقل وضروب من التروعات النفسية.

ثم وقفنا عند دلالته في القرن الخامس، مع علمين أحدهما فقيه ظاهري، هو ابن حزم وثانيهما فقيه شافعي صوفي، هو الإمام الغزالي، ومعهما لاحظنا أن القلب وأشياءه أصبحت تناقش مناقشة فلسفية وكلامية عميقة، حاور فيها العقل النقل، وتداخل فيها الكلامي والطبي والفلسفي والصوفي، وقد وظفت خلاصة تلك الرؤى عدة توظيفات، إبداعية وسياسية وفقهية.

(45) أبو حامد الغزالي: الإحياء ج. 3، ص. 10.

(46) أبو حامد الغزالي: الإحياء ج. 3، ص.11. شرح الرموز الواردة في هذا النص: الشيطان رمز الشر، يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر، ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع، ويظهر الشر معرض الخير، وهذه أخلاق الشياطين الخنزير: الشهوة، فإنه لم يكن مذموما للونه وشكله وصورته، بل لجشعه وكلبه وحرصه.